مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإلى القارئ الكريم نقدم هذا الكتاب « نظرات تطبيقية فى علم البيان » .. وهو — كما يبدو من عنوانه — يعرض لهذا العلم الشامخ من علوم البلاغة ، وهو علم البيان ، ويتتبع ألوانه وصوره ، ويثير مسائله وقضاياه ، ويقرب إلى الأذهان فنونه ، ويدنى إلى العقول قطوفه ، وينشر جماله وتألقه ، عندما تتوشح به العبارة ، ويزدان به الأسلوب ، فيضفى على الكلام سحرا وبهجة ، وبداعة وروعة ، فإن لعلم البيان خلابة ورواء ، وعذوبة وبهاء ، وجزالة وفخامة ، ونصاعة ونضارة ، يدركها المتأمل صاحب الذوق الرهيف ، والطبع الشفيف ، من خلال ما يفترّ عنه ثغر « البيان » ، من أصباغ وأفنان ، وفرائد وطرائف ، تنثال على خاطرك إذا أحسنت استقبالها ، وأوقدت الذهن فى تملّى عبقها ، فإنها — وأيم الله — ستتحفك وتعطيك ، وتصلك وترويك .

ولا يخفى على الذهن اللماح : منزلة علم البيان من البلاغة ، وحسبه أنه أول علومها ظهورا ، وأقدم فنونها انثالا ، به أخذت البلاغة تشق طريقها ، وتتحسس دربها ، حتى اشتد أزرها ، وتقوى ساعدها ، بظهور أخويه : « علم المعانى وعلم البديع » ، فاكتمل البناء ، وتواصل العطاء ، وغدت البلاغة وحدة جامعة ، ولحمة متماسكة ، ونبعا فياضا لا يغيض ، تصقل البيان ، وتجوّد الأساليب ، وتسمو بالأذواق ، وتربى الملكات ، وتمنح الأذهان المتعة الأدبية ، وتسكب عليها الانتشاء الروحى والوجدانى ، والفكرى والشعورى .. وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن من البيان لسحرا » .

وقد جاء أسلوب هذا الكتاب – بحمد الله – سهلا ميسورا ، يجمّله الطابع الأدبى ، الذى تربو به العاطفة ، وتهش له الملكات والأذهان ، وقد أبى هذا الكتاب أيضًا : إلا أن يبعد عن أجواء الخلافات العقيمة ، والمماحكات الساخنة ، والمهارشات العاطلة ، التى لم تُفد منها البلاغة ، ولكنها أفسدت روح البيان .

فإن صادف هذا الكتاب هوى فى نفوس قارئيه ومتلقيه : فذاك فضل من الله ومنّة ، وإلا فالإنسان محاصر – دوما – بالنقصان ، وسبحان من تفرد بالكمال المطلق ، هو حسبنا ونعم الوكيل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

البيان والإعجاز

تمهيـد

البيان نعمة جليلة ، أسبغها المولى جل شأنه ، على بنى الإنسان خاصة ، دون المخلوقات الأرضية كلها ، فقال ممتنا بذلك : ﴿الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ..﴾ ، (الرحمن : ١ – ٤) .

وإذا كانت المخلوقات الأخرى لها من وسائل البيان وأدواته ، ما يلائم طبيعتها ، ويناسب وظيفتها التى سُخرت لها : ﴿الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ..﴾ ، (الأعلى : ٢ – ٣) ، فإن الإنسان وحده تميز ببيانه الذى لا يشاركه فيه سواه ، من كائنات أبدعها الله فى هذا الكوكب الأرضى المحدود ، فقد وهبه الله العقل المفكر ، واللسان المعبر ، والصوت المؤثر ، وكانت هذه الآيات فيه ، من عجائب قدرة الله ، وروائع فيوضاته ومدده : ﴿ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ..﴾ (البلد : ٨ – ١٠) .

وهذا المستوى الفذ من البيان ، والذى تبوأه الإنسان : جعله أهلا لأَنْ يخاطبه الرحيم الرحمن ، ويكرمه ويقربه ، فأسجد له ملائكته ، وبعث إليه أنبياءه ورسله ، وظل موكب النبوة يترى ، ومسيرة الوحى تتتابع ، إلى أن كانت الحلقة الخاتمة فى سلسلة الرسالات ، حيث جاء محمد رسول الله ، ليكون للعالمين نذيرًا – صلوات الله وسلامه عليه .

ولقد كانت معجزة هذا النبى الكريم – ﷺ – كتابًا بيانيًا ، يحترم الكلمة ، ويسمو بالعبارة ، ويزكو بالأسلوب ، ويثير فى الإنسان أغلى ما لديه ، ويحرك عنده أقدس ما أودع فيه ، وليس هناك بعد منحة العقل منحة ، وليس وراء نعمة التمييز والإدراك نعمة : ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا ، إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا﴾ ، (الإنسان : ٢–٣) .

ولما كان نبى الله محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – عربى المنبت والنشأة، وكانت أرومته موغلة فى العروبة، ومحتده ضاربًا فى النجار العربى الأصيل: فقد كان طبيعيًا، أن تتوجه تلك المعجزة البيانية – القرآن الكريم – إلى العرب أولاً، ثم إلى عموم الثقلين ثانيًا، فتحدى الله العرب بالقرآن، وأهاج حميتهم بالتبكيت والتوبيخ، وساق إليهم أساليب التحدى، فى صياغات متعددة، مراعيًا حالهم، متفاوتًا مع ملكاتهم وطاقاتهم، وظل هؤلاء فى الانحسار يتمطون، وفى العجز يتواثبون ويتراكضون، وظل نداء التحدى يصخ آذانهم طوال عشرين سنة، وهم فى أماكنهم جامدون، وفى بلادتهم قابعون، ثم اختاروا المركب الصعب، وآثروا الطريق الوعر، وركبوا الفواقر المبيرة، فخاضوها – برعونتهم – حروبا ضارية، أريقت فيها الدماء، وهلكت الأنفس، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال.

ولقد كان من العرب: قبيلة قريش، المعروفة برزانة الأحلام، ونضج الألباب والأفهام، وكان لديها من الخطباء المصاقع، والمتحدثين ذوى اللسن، وكان فى حوزتها من الشعراء المقاويل: مَنْ شهد لهم الذكر الحكيم، بالجدل واللدد، والفصاحة والذرابة .. قال تعالى: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ..﴾، (الزخرف: ٥٨). وقال: ﴿لتبشر به المتقين وتنذر به قومًا لُدًّا﴾، (مريم: ٩٧).

ومقتضى الطبع والضرورة: أن هؤلاء لو كان فى مقدورهم مجاراة الكتاب الكريم، فى أساليبه العالية، ونظمه الرصين، لطاروا إلى ذلك، زرافات ووحدانًا، ولكنهم تخاذلوا وتقاعسوا، وقالوا بلغة العاجز المستكين: ﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ..﴾، (الأنفال: ٣١).

ومن ثم فقد ثبتت الحجة على العرب، ولزمتهم البينة، وأصبح القرآن شاهد صدق، لدعوة النبى الخالدة .. وكذلك الأمر بالنسبة لغير العرب، فقد تحدى الله الثقلين طرًا، بالقرآن، فقال: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن

يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ..﴾ ، (الإسراء : ٨٨) .

وإذا كان التحدى بالنسبة للعرب : قد وضحت صورته ، واستبانت معالمه ، فراحوا فى العجز يتخبطون ، وأمام صولة القرآن يتراجعون ويتطامنون : فإن غير العرب من شتى الأمم والأجناس ، قد بهرهم من الذكر الحكيم : روعته وموسيقاه ، ونغمه الذى ينساب من بين حروفه وكلماته ، وأجزائه وعباراته ، فيملك المشاعر ، ويهيمن على الوجدان ، ويذيب جلاميد الإحساس : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله﴾ ، (الحشر : ٢١) .

وبهرهم من الكتاب الكريم : سمو معانيه ، ونبل مقاصده ومراميه ، وجلال تشريعاته ، وصدق أحكامه ، ووضاءة حججه ، ونصاعة قضاياه ، وحديثه عن الكون وخفاياه ، وإشاراته البارعات إلى أقطار الأرض والسموات ، ثم احتواؤه للكائنات وتصنيفها ، وبيانه للمخلوقات وتنويعها ، وتحريره للعقل من الجمود ، وفك أسره من القيود ، وتناوله لكثير من الحقائق العلمية ، التى سبق بها عصور التقدم والبحث التجريبى ، مما بهر العقول ، وأدهش الفحول ، وأثار إعجاب الدارسين المنقبين .. وكم للقرآن من لقطات علمية ، استأنس لها أصحاب القرائح ، وخشع أمامها أولو العلم والحجا ، والألباب والنهى .. واقرأ فى ذلك آيات سيالة ، تشنف الآذان ، وتمتع الوجدان ، وتهز الملكات ، وتشعل الأذهان : ﴿والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ..﴾ ، (يس : ٣٨ – ٣٩) ، ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ ، (الحجر : ٢٢) ، ﴿يكوّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ..﴾ ، (الزمر : ٥) ، ﴿والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ..﴾ ، (النازعات : ٣٠–٣٢) ، وغير هذه الآيات كثير ، نراه مبثوثًا فى هذا الكتاب المنير ، به

تسامى وجلّ عن أن يحاكى ، فقل لى بربك : من أين لمحمد النبى الأمى : علم هذه الظواهر الكونية ؟ قال تعالى : ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارْتَاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ..﴾ ، (العنكبوت : ٤٨-٤٩) .

والقرآن باهر وعجيب ، فى كل ما تناوله من قضايا وشئون ، سواء كانت دينية أم حياتية ، فردية أم اجتماعية ، وهو حين يسوقها ، ينفذ منها إلى عقول المخاطبين ، ولا يهيم بهم فى أودية الخيال ، لأنه كتاب الفطرة ، ودستور البقاء وكل ما تضمنه من نظم وأحكام ، وقوانين ومعاملات ، وسياسة وعلوم ، ونصائح وتوجيهات ، وتاريخ وإشارات : يتعانق مع الإنسانية فى وثباتها الحضارية ، وقفزاتها نحو التقدم السليم .

وعلى الرغم من أن القرآن قد نزل منجما ، إلا أن معانيه قد تلاقت ، وتعانقت مقدماتها بنتائجها ، ومهدت أولاها لأخراها ، ولن تجد فى معانى القرآن ما تجده فى غيره ، من كلام البشر ، من المعانى الساقطة ، بل كل معانيه سامية قوية ، آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ، فقضت على الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء ، والهمجية مدنية ، والجهل علما ومعرفة ، « ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها ، ومتى وعدت من كرم الله : جعلت الثغور تضحك فى وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب .. »[1] .

فالقرآن الكريم من شأنه ، إذا استمع إليه إنسان : أن تتحرك مشاعره حبورًا ،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦ . ط . ثانية .

ويهتز قلبه سرورًا ، أو يقشعر بدنه خوفًا ، ويتعصر فؤاده رجاء ، لما فيه من جمال فى الأسلوب ، وقوة فى العبارة ، وسمو فى الفكرة .

ولقد وصف الله كتابه العظيم ، فقال : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ..﴾ ، (الزمر : ٢٣) ، فروعة القرآن وبداعته ، ونصاعته وبراعته : تدرك ولا توصف ، شأن النغم الحلو ، والوزن المستقيم ، فيتسلل إلى أغوار النفس ، ويستقر فى أعماقها ، ولكن العرب كما وصفهم القرآن : ﴿قوم خصمون﴾ (الزخرف : ٥٨) ، وكانوا أعداء ألداء ، فامتطوا صهوات الامتراء والافتراء ، فأخذوا يتحرشون بالقرآن ، ويناوشونه متخرصين مكذبين ، بغية التهوين من أمره ، والغضّ من قدره ، ولكن هيهات .. فدون غايتهم دق الأعناق :

كناطح صخـرة يومـا ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

إن إعجاز القرآن قضية لا يمارى فيها إلا معاند ، ولا يتهارش حولها إلا قوم أفِنَت منهم العقول ، وسقمت منهم الأذهان ، والتاثت عليهم الفطرة ، وانتكست عندهم الملكات السليمة ، والطبائع المستقيمة :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم المـــاء من سقم

إن نظرة واعية إلى التراث الأدبى واللغوى لأمة الإسلام : تجعلنا ندرك : أن القرآن بعطاءاته ، كان يمثل الصيحة المدوية المجلجلة فى هذا الوادى البلقع ، بل إنه نداء البعث فى بيئة مقفرة ، هى البيئة العربية ، فنشطت الهمم الراكدة ، وثارت العزائم الخاوية ، وانسالت العقول المسلمة ، تبدع وتنشئ ، وتجيد وتجتهد ، حتى رأينا هذا الصرح الشامخ السامق ، وحتى غشيتنا وأظلتنا تلكم الحضارة الفكرية الأدبية اللغوية ، وهى – دون ريب – لمسة من لمسات القرآن ، ونفثة من نفثاته ..

لقد كان القرآن الكريم : بمثابة المصدر الأول ، الذى اغترف منه العلماء ،

ونهل منه اللغويون والمفكرون والأدباء ، لا يصدرون عنه ، ولا يشبعون منه ، وهو معهم : « لا يبلى على كثرة الرد .. » ..

فقد رمقه علماء اللغة والنحو والصرف – فى عصور التدوين – حين راحوا يقعدون القواعد لهذه العلوم ، ويستشهدون عليها بآيات من كتاب الله ، ومن ثم كان القرآن إمامهم فى كل ما وضعوا من قواعد ، وأبدوا من آراء ، حتى العلماء الأولين : فقد تأثروا بالقرآن ، وانفعلوا بأسلوبه ، وبُهروا بتراكيبه ، وأخذتهم الغيرة عليه ، فاشتعلت ملكاتهم ، واستنبطت علوما لخدمته ، وفهم أسراره ، هى علوم البلاغة .

وكان للقرآن أثره فى حفظ لغة العرب من الضياع والاندثار ، فقد كثر المتكلمون بهذه اللغة ، حيث هجر الكثير من الأمم التى أسلمت : اللغة التى كانوا يتكلمون بها ، من فارسية أو رومية أو قبطية ، وأقبلوا على لغة القرآن ، يدرسون ويستطيبون ، لأنها الوسيلة إلى فهم الإسلام وكتابه ..

وللقرآن أثر فى نمو تلك اللغة ورقيها ، حيث أقبل الناطقون بهذه اللغة : على حفظه ، والاقتباس منه ، تأثرًا ببلاغته وأسلوبه فى حسن التأليف ، ووضع الكلمات مواضعها ، ومراعاة فصل الجمل ووصلها ، وحسن الإيقاع بين المقاطع ، وإحكام الاستدلال ..

وقد انتزع الأسلوب القرآنى : عقول العرب وأفكارهم من الغرابة اللفظية ، التى كانت تتحكم فى ألسنتهم ، ثم جعلها تعيش بين سهولة ألفاظه وعذوبتها ، وسمو معانيه وروعتها ، حتى تأثرت بكل ذلك ، وانعسكت صورته اللفظية والمعنوية والبيانية ، على العرب وبلاغتهم فى الخطابة والكتابة والشعر ..

ولم يكد العرب – وهم الحفاظ المتمهرون فى صناعة الكلام ، والبلغاء المقاويل فى مجال النظم والقريض – لم يكادوا يسمعون القرآن فى عذوبته وجزالته ، حتى أخذوا ببلاغته ، فأقبلوا عليه يحفظونه ، ويستلهمون من معانيه

وألفاظه وتراكيبه القوة التى يعبرون بها ، والتى تتجلى سافرة باهرة فى منظومهم ومنثورهم ، وكيف لا ، وبلاغته هى التى سجد لها الأعرابى الفصيح قبل أن يسلم ، حين سمع قارئا يرتل :

﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ..﴾ .. (الحجر : ٩٤) .. ثم قال : « سجدت لفصاحته » ..

ثم كيف لا ، وهو الملىء بالآيات التى جرت مجرى الأمثال ، كقوله :

﴿ضعف الطالب والمطلوب ..﴾ .. (الحج : ٧٣) ..

وهو الملىء بالصور التشبيهية الرائعة ، كتصوير الحياة الدنيا ، فى قوله : ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ..﴾ .. (يونس : ٢٤) .. وقوله : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ..﴾ .. (البقرة : ٢٦١) ..

وهو الملىء بالإيجاز المعجز ، كقوله : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ..﴾ .. (الأعراف : ١٩٩) .. وكقوله : ﴿ألا له الخلق والأمر ..﴾ .. (الأعراف : ٥٤) ..

وكم فيه من مجاز هزّ قلوب الفصحاء ، كقوله تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارا ..﴾ .. (النساء : ١٠) ..

وكقوله :﴿وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ..﴾ .. (نوح : ٧) .. وكقوله: ﴿واسأل القرية التى كنا فيها..﴾ .. (يوسف : ٨٢) ..

وكم فيه من كنايات لطيفة رشيقة ، سحرت الألباب ، واستثارت العجب العجاب ، كقوله : ﴿والله يدعو إلى دار السلام ..﴾ .. (يونس : ٢٥) ..

وكقوله : ﴿فأصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها ..﴾ .. (الكهف : ٤٢) ..

كل ذلك وغيره ، من ألوان وألوان ، مما جاء فى القرآن ، ماثلا فى أبهى

حلل البيان : كان المعين الثر ، والمورد الغدق ، الذى نهلت منه أجيال الأدباء ، حتى انتشوا من رحيقه ، فشدوا وملئوا الدنيا بسحر البيان ، وجمال التبيان ..

وما زال القرآن ، ولا يزال ، وسيظل – إن شاء الله – بطاقاته المودعة فيه ، وأسراره المبثوثة فيما بين دفتيه : النبع العلوى ، الذى يرتوى منه طلاب الفصاحة ، ورواد البلاغة ، ما دام للكلمة مجال ، وللقول عند الناس مكان .. ولن يستطيع إنكار بلاغة القرآن ، أو المماراة فيه : إلا أقوام عميت أبصارهم وبصائرهم ، فهم فى دياجير الضلالة والغواية يتخبطون .. أما القرآن فسيظل – أبد الدهر – شامخا معطاء ، يرفد لغة الضاد ، بعناصر النماء والبقاء ، وستتوالى الأجيال وتترى ، وهى ترمق هذا الكتاب فى جلاله ، وترنو إليه فى جماله وكماله ، قاصدة نحوه ، حافة به ، راكضة إليه ، لا ينقطع دونه الطلب ، ولا ينتهى من محاسنه وفرائده العجب ..

يقول الرافعى : « نزل القرآن بهذه اللغة ، على نمط يعجز قليله وكثيره معا : فكان أشبه شىء بالنور فى جملة تدفقه ، إذ النور جملة واحدة ، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته .. وهو فى كل جزء من أجزائه جملة ، لا يعارض بشىء إلا إذا خلقت سماء غير السماء ، وبدلت الأرض غير الأرض ، وإنما كان كذلك : لأنه صفى اللغة من أكدارها ، وأجراها فى ظاهرها على بواطن أسرارها ، فجاء بها فى ماء الجمال أملأ من السحاب ، وفى طراءة الخلق أجمل من الشباب ، ثم هو بما تناول بها من المعانى الدقيقة ، التى أبرزها فى جلال الإعجاز ، وصورها بالحقيقة ، وأنطقها بالمجاز : قد أظهرها مظهرا لا يقضى العجب منه ، لأنه جلاها على التاريخ كله ، لا على جيل العرب وحده ، ولهذا بهتوا لها ، حين طالعوها ، ولم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود .. »[١] ..

أجل !! إن الإعجاز القرآنى غدا – بكل المقاييس – من أخطر القضايا

---

(١) إعجاز القرآن ص ٧٦ ..

العقدية والفكرية ، التى حامت حولها تصورات البيانيين ، وناوشتها يراعات الباحثين ، وتشاجرت فوق ساحتها أقلام البلاغيين ، ومن ثم دخلت قضية الإعجاز نطاق التأليف ، واستحوذت على باكورات العلماء واجتهاداتهم ، بعد أن مست شغاف قلوبهم ، وبعد أن أسفرت لهم عن وجوه من الإعجاز خلابة ، وتفتقت لهم عن أكمام من البيان مونقة ، فاشتعلت عبقرياتهم ، وتوهجت قرائحهم ، وزكت مواهبهم ، وأصبح لدينا تراث بلاغى وفكرى ، قلّ أن نجد له نظيرا ، فى أىّ من ثقافات العالم ، قديمه وحديثه ..

ولا شك أن هذا النتاج الأدبى الفكرى : قد وقف سدًّا منيعًا ، أمام الأعاصير الهوج ، التى انطلقت تريد هدم العقيدة الإسلامية ، متمثلة فى قرآنها ، على أيدى الملاحدة والزنادقة ، وسائر الشعوبيين ، الذين دخلوا الإسلام ، بقصد الكيد له ، والتربص به ، ولكن الله من ورائهم محيط ، فلقد تكسرت نصالهم ، وتحطمت سهامهم ، وردّ الله كيد العدو فى نحره :

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ..﴾ .. (الأنفال : ٣٠) ..

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ..﴾ .. (التوبة : ٣٢) ..

لقد اقتحم القرآن أقفال القلوب ، وتسلل إلى النفوس ، وعايشها فى خلوتها وجلوتها ، فى سرائها وضرائها ، فى آمالها وطموحاتها ، لأنه كتاب الفطرة ، ومنهج اليقين ..

الله أكـــبر إن ديـــن محمـــد وكتابه أهدى وأقـوم قـيلا
لا تذكـر الكتب السوالف عنده طلع الصبـــاح فأطفئ القنديلا

تلك مقولة أردنا أن نجعلها تمهيدا وتوطئة لهذا البحث : « نظرات تطبيقية فى علم البيان » .. حتى يتبين القارئ : أن البلاغة العربية بعلومها الثلاثة : « البيان والمعانى والبديع » : قد كسبت من القرآن حياتها ، واستمدت منه سر

وجودها ، فهو بالنسبة إليها : له فضل الأرواح فى الأجساد .. والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .. ونسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه إنه سميع مجيب .

جدة – المملكة العربية السعودية

المحرم ١٤١٥ هـ

يونية ١٩٩٤ م

د . عبد الفتاح محمد محمد سلامة

علم البيان

قد ينفعل الأديب بفكرة ، وقد تمتلئ نفسه بمعنى ، وقد يعجب بموقف يملك عليه أحاسيسه ومشاعره ، فيلحّ عليه أن ينقله إلى الناس ، ليتملوه بعقولهم ، ويعايشوه بخواطرهم ، حتى يكون لهم مصدر إسعاد وإيناس ، وباعث متعة وارتقاء ..

وقد تتراءى للأديب اللماح : صور متعددة ، وألوان متنوعة ، تفى بغرضه ، وتوصل إلى المخاطبين والمتلقين مقصده وأربه ، فالمعنى المذخور المطوى واحد ، ولكنه – حين يبرز – يرتدى ألبسة شتى ، ويخال فى حلل متباينة ، كل منها تسطع تألقا وبهجة ..

والعلم الذى يأخذ بيد الأديب ، ويعرفه كيف يصوغ المعنى الواحد ، فى صور تعبيرية ، ومظاهر أسلوبية متعددة ، تختلف فى وضوح الدلالة عليه · هذا العلم هو ما نطلق عليه : « علم البيان » ..

خذ مثلا قصة الهجرة :

لما خرج النبى ﷺ مهاجرا من مكة إلى المدينة : اختفى فى غار ثور ، وقد اقتفى الكفار أثره ، حتى أشرفوا على باب الغار ، ولكنهم تراجعوا ، مستبعدين أن يكون محمد وصاحبه أبو بكر قد دخلاه ، لأنهم رأوا على فم الغار حمامتين وحشيتين ، وقد نسج العنكبوت على بابه خيوطا عجيبة ، توحى لناظرها أنها كانت موجودة قبل ميلاد محمد ، فرجعوا القهقرى ، يجترون الخزى والخيبة ..

وقد تناول هذه القصة ثلاثة من الشعراء :

١ – قال البوصيرى فى قصيدته « البردة » :

فالصدق فى الغار والصدّيق لم يرما ... وهم يقولون ما فى الغار من أَرَم[١]
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم
عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

٢ – وقال البارودى بعد أن وصف الحمامة :

وارت فم الغار عن عين تلم به ... فصار يحكى خفاء وجه ملتثم
فيا له من ستار دونه قمر ... يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم
فظل فيه رسول الله معتكفا ... كالدر فى البحر أو كالشمس فى النسم

٣ – وقال أحمد شوقى فى : « نهج البردة » :

سل عصبة الشرك حول الغار حائمة ... لولا مطاردة الكفار لم تحم
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا ... همس التسابيح والقرآن من أمم[٢]
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم ... كالغاب والحائمات الزغب كالرخم[٣]
فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارين ما سلما ... وعينه حول ركن الدين لم يقم

ولو أمعنا النظر فى هذه النصوص الثلاثة : لوجدنا بينها فروقا فى الصياغة ثم فى الأسلوب ، مع اتفاقها جميعا فى المعنى ..

فالبوصيرى فى البيتين الأول والثانى : لم يزد عن حكاية القصة ، فالنبى الكريم وصاحبه لم يتركا الغار ، والمشركون قالوا ما فى الغار أثر لأحد ، وظنوا أن الحمام والعنكبوت قديمان على فم الغار .. وفى البيت الثالث : عبر تعبيرا قويا عن السر فى نجاة محمد ﷺ وصاحبه ، وأنه يتمثل فى عناية الله التى تغنى عن الدروع المضاعفة النسج ، المحكمة السرد ، وعن الحصون الحصينة العالية ..

---

(١) لم يرما : لم يبرحا الغار ، أرم : أثر .
(٢) أمم : قرب .
(٣) الحائمات : الحمام ، الرخم : طير على شكل النسور .

والبارودى لجأ إلى التشبيه ، فشبه الغار ، وقد وارته الحمامة : بوجه الملتثم بثوب ، ثم شبهه بستار داخله قمر ، وشبه الرسول وهو مختف فى الغار : بالدرّ فى البحر ، وبالشمس فى النسم ..

أما أمير الشعراء « شوقى » : فقد تجاوز الحكاية إلى تصوير حال المشركين ، وساق ذلك فى أسلوب الاستفهام ، حتى يجتذب انتباه السامع ، ثم رماهم بكلمة قاسية قوية التعبير : (فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم) .. وقد استعان أيضا بالتشبيه : فنسج العنكبوت كالغاب ، والحمام كالرخم ، والمشركون فى إدبارهم كباطل منهزم أمام جلال الحق .. وأخيرا يجعل النبى ﷺ ، وأبا بكر – رضى الله عنه – متواريين تحت جناح الله وستره ..

ومن هنا : يتبين لنا : أن المعنى قد يكون واحدا ، ولكن يختلف تعبير الشعراء عنه وضوحا وخفاء ، وقوة وضعفا ، وحقيقة وخيالا ..

ولا يتأتى للأديب أن يسوق المعنى الواحد فى صور متنوعة من الأساليب : حتى تكون لديه ملكة – هو متمهر فيها – بها يبدع وينوع ، وينشئ ويفترع ، وإذا بلغ إنسان هذا المبلغ : وصفناه بأنه مبين ، أو عالم بالبيان ، ونحن عندما ندرس هذه الطرق التى تمكننا من تنويع التعبير ، نقول : إننا ندرس : « علم البيان » ..

فهذا العلم هو قواعد وأصول يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى دلالتها .. ومتى عرفنا هذه الطرق ، والمقبول منها والمردود : أمكننا أن نعبر عن معانينا بصور واضحة جميلة ، لا تعقيد فيها ولا التواء ..

وقد تتبع العلماء الطرق التى يستخدمها الأدباء فى صياغة آثارهم الأدبية الرائعة ، فوجودها ثلاثة (التشبيه والمجاز والكناية) .. فمن الممكن أن نقول : « علم البيان يبحث فى التشبيه والمجاز والكناية » ..

وهذا ما ينبغى أن نعرّف به علم البيان ، فهو علم يتناول هذه الفنون الجميلة ،

أعنى : « التشبيه والمجاز والكناية » ، مجليا أسرارها ، كاشفا عن مواطن الجمال فيها ، عارضا لأساليبها الرفيعة ، عندما تنطلق متوهجة فى سماحة دون تكلف ، وفطرية دون تعسف .. وبذلك ننأى عن إقحام الدلالات فى مباحث علم البيان ، لأنها إلى المنطق أقرب ، وبالفلسفة أوثق ، فلتُبحث الدلالات هناك .. وليبق علم البيان زاهرا مشرقا بعيدا عن الإلغاز والتعقيد ، كما عهدناه فى صحف الأقدمين ، وفى آثار السابقين ..

أهمية دراسته

علم البيان أحد علوم البلاغة الثلاثة ، ولهذه العلوم فوائدها الجليلة ، ولعلم البيان منها النصيب الأوفر ، والحظ الأكبر ..

والإنسان العادى قد يعبر تعبيرا عاديا ، لا خلابة فيه ولا جمال ، فلا يؤثر فى النفوس ، ولا يمسّ شغاف القلوب .. لكن الأديب المتذوق لا يرضى لذاته هذا المستوى الضحل ، وإنما يهدف إلى مكانة أسمى ، ودرجة أعلى .. إنه يريد أن ينقل إلى المخاطبين إحساسه بالأشياء ، وانفعاله بها ، وصدقه فى الحديث عنها ، ولذا فهو يعمد إلى الصورة البيانية يستعين بها على أداء ما فى نفسه ، فيلجأ إلى تشبيه رائع ، أو استعارة جميلة ، أو كناية رشيقة بليغة ..

وإذا شئت مصداقا لما قلنا : فقارن بين أن تقول : الأحوال تتغير ، ولا يدوم حزن ولا سرور ، وبين قول الشاعر :

ربّ ركب قد أناخوا عيسهم فى ذرا مجدهم حين بسق
سكت الدهر زمانا عنهمُ ثم أبكاهم دما حين نطق

فهؤلاء الركب الوادعون الذين بسق مجدهم وارتفع ، فأقاموا فى ذراه ، غافلين عن أحداث الأيام ، عالين عليها ، والدهر ساكت عنهم ، قد وجدوا أنفسهم فجأة ، يبكون دما ، لأن الدهر نطق ، ورماهم بدواهيه ، فأنزلهم من أعالى المجد ، إلى حضيض الذل ..

هذا المجد الباسق ، والدهر الساكت الناطق ، والإبل التى تُناخ فى ذرا المجد – وهى كناية عن الاستقرار والرفعة – وبكاء الدم ، وفيه كناية عن المهانة والذلة .. كل هذه تعاونت على إخراج هذا المعنى فى صورة رائعة ، ونشره فى معرض جميل مؤثر ..

والآن – أيها القارئ الكريم – ننشر بين يديك أون مباحث علم البيان .. إنه مبحث التشبيه .. فإلى هناك ..